

الأمانة وأهمية أدائها

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين: الأمانة على تبليغ الرسالة، والأمانة في نشر دين الله في أرض الله، وفق أمر الله الكريم، في القرآن الكريم، وعلى مسيرة رسول الله ﷺ، وحثه على تبليغ شرع الله في عباد الله، قولاً باللسان، وقدوة في العمل، وجهاداً بالنفس والمال، واهتماماً بنقل الأمانة، وتحقيق دورها في نقل سنته، بعد بذل جهودهم رضي الله عنهم بحفظ القرآن، وجمعه خوفاً عليه بعد ما قُتل في الحروب بعض حفاظه.

والأمانة على تأدية الدور في جميع ما استحفظوا عليه، بأداء الشهادة في قولهم: لَمَّا قَالَ لَهُمْ: «فما أنتم قائلون عني؟»: نشهد أنك قد أدّيت الرسالة، وبلغت الأمانة، ونصحت الأمة، ورفع ﷺ

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

أصبعه قائلاً: «اللهم فاشهد.... اللهم فاشهد، اللهم فاشهد»^(١).

فكانوا خير القرون بعده، باهتمامهم في أداء الأمانة، وترسم خطاه عليه الصلاة والسلام: عبادة مع الله، وتعاملاً مع الناس، وحرصاً على المواثيق، وصدقاً في المواعيد، ودعوة إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة... حتى ضربوا النموذج الأمثل، في الحرص على الأمانة وأدائها.

وبعد: فما أجمل تعاليم الإسلام، وما أحسن آدابه، فهو يهذب النفوس، ويغير الطباع، ويدعو لترابط المجتمع، وأداء الحقوق وغير ذلك من الصفات الحميدة.

وما من شأن من شؤون الحياة، إلا وقد جعلت هذه التعاليم، والتوجيهات الكريمة: من القرآن الكريم، ومن السنة المطهرة، آداباً هي المثالية، عندما يتخلق بها الفرد، وتحرص على تطبيقها الجماعة، بإخلاص وصدق، لأنّ التخلق بها يبرز وراءه: المجتمع المثالي: أمناً ورخاءً، وصيانة للحرمان، ومكافحة للجريمة، مع ما تشوق إليه البشرية، في أيّ موقع كانت.

وعندما خطب رسول الله ﷺ، في حجة الوداع، في أمته واعظاً ومبلغاً ومركزاً على أمور، منها الأمانة: على الدماء والأموال

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ برقم: (١٢١٨) كاملاً.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

والأعراض، والوصاية بالنساء خيراً، لأنها أمانة عظيمة في أعناق الرجال.. ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(١).

فما ذلك إلا أن التساهل فيها يجرّ إلى أمور عديدة: سواء في الأمور التعبدية مع الله سبحانه، فضلاً عن آثارها في المجتمع: أفراداً وجماعات.

فقد قال له ﷺ، واحدٌ من الصحابة: يا رسول الله: كأنّها خطبة مودّع، فأوصنا؟ فقال ﷺ: «تركت فيكم: كتاب الله وستي، لن تضلّوا ما تمسكتن بهما»^(٢).

وما ذلك إلا أن الأمانات إذا أدّيت على حقيقتها، وفق ما أمر الله في كتابه، وما حثّ عليه رسوله الكريم ﷺ من تأكيدات لأهمية الأمانة، وأدائها.. فإن النفوس سوف تعفّ، ويرضى كل فرد بما قسم الله، ويعمّ العدل والهدوء، ويكون على كل نفس بشرية: رقابة ذاتية، ومحاسبة دقيقة، وغيرها من الصفات الحميدة، التي بها يترابط المجتمع، وتنعدم الجريمة... وينام كل فرد آمناً مطمئناً، وترفع الأقفال عن البيوت والمتاجر، مع العدل والإنصاف.. استجابة لأمر

(١) سورة البقرة الآية: ٢٢٨.

(٢) يراجع في هذا كتب الحديث والسيرة، وتاريخ ابن كثير، عن هذه الخطبة البليغة.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

الله جلّ وعلا، الذي فهمه المسلمون الأوائل، وخاصّة في القرون الثلاثة المفضّلة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت في كتاب الله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فأرعاها سمعك، فما وراءها: إمّا خيراً تؤمر به، أو شراً تنهى عنه^(٢).
ورسول الله صلى الله عليه وآله: خير الأماناء من البشر، وجبريل عليه السلام هو أمين الله على وحيه، وفي فتح مكة وتطهيرها من أدران الشرك، دعا عليه الصلاة والسلام بعثمان بن طلحة، خازن وحامل مفتاح الكعبة، فأخذه منه ودخلها وأزال ما فيها من أرجاس الجاهليّة، وبعد ذلك تكلم والمفتاح بيده، وعمه العباس يتطلّع إلى أن يعطيه إياه، حتى يحوز على أكبر قدر من المكانة، فلم يحابه أو يقدّمه على غيره. عليه الصلاة والسلام..

بل دعا بعثمان بن طلحة، وأعطاه المفتاح، قائلاً: خذوه خالدة تالدة، وتلا ما جاءه من وحي الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾^(٣).

(١) سورة الأنفال الآية: ٢٧.

(٢) سورة الأنفال الآية: ٢٧.

(٣) ينظر تفسير ابن كثير، سورة المائدة، الآيات (١-٥).

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

وما انتشار الإسلام، إبان القرون الثلاثة المفضّلة، وما بعدها إلا عندما ترسموا خطى الصحابة في الصدق وحسن التنفيذ، في كثير من مواقع المعمور من الأرض، والتي لم تبلغها جيوش المسلمين، عندما امتدّت شرقاً وغرباً، في أرض الله لنشر دين الله، في عباد الله، امثالاً لرسالة الدعوة التي حمّلهم الله حقّ تبليغها، في مواطن كثيرة، من مصدري التشريع في دين الإسلام.. وما حصلت المصلحة الكبيرة إلا ثمرة من ثمار حرصهم على أداء الأمانة، على وجهها الذي شرعه الله، وسار عليه رسول الله ﷺ، الذي هو قدوتهم في العمل، وحسن الاستجابة في البيان.

وهذا من أبرز اهتماماتهم بأداء الأمانة، تطبيقاً في النفوس، وقدوة صالحة في الحديث، وصدقاً في التعامل مع الآخرين، ووفاء بالمواثيق والمواعيد، وغير ذلك من الصفات التي تتوق إليها القلوب الصّافية، وتتطلع إليها النفوس البشريّة عامّة، لما فيها من صلاح وإصلاح.

نموذج ذلك ما جاء في: المناظرة الكبرى، بين الشيخ رحمة الله الهندي، والدكتور القسيس «فندر»، ومعه القسيس «فرنج»، حيث انهزما أمام مناظرته لهما، لأن دين الله يعلو، ولا يعلو عليه^(١).

(١) تراجع هذه المناظرة من راغب الفائدة، والتي تقع في ٥٣٦ صفحة بالفهرس ترجمة وتعليق د. عبد القادر خليل نشر دار ابن تيمية بالرياض الطبعة الثانية عام ١٤١٢هـ.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

وقد جاء في مقدمة تلك المناظرة، عن دخول الإسلام في الهند الغربية، وبخاصة ساحل «مليبار» هذا القول: أمّا التّجار فكان أغلبيتهم من العرب، الذين يقدون إلى السواحل الهندية الغربية، وبخاصة «ساحل مليبار»، حاملين معهم بضاعتي: الدين والدنيا.. وكان الإسلام ينتشر على أيديهم بكلّ بساطة، بين الشّعوب الوثنيّة. و وسيلة التجارة، من أسبق الوسائل وأسهلها في الدعوة إلى الله، وما زال لها الأثر الفعّال في انتشار الإسلام في العالم، وفي هضبة «الدّكن» الهندية.

فإن التاجر بصدقه وأمانته، وحسن معاملته وأخلاقه، ومحافظةه على أداء شعائر دينه، بانتظام وطهارة، يبعث في نفوس الذين يتعاملون معه، حبّ هذا الدين.

وقد اعترف القسّ «ورنر»، فقال: ومن المحقّق أن التّاجر المسلم، يبتّ في هؤلاء الوثنيين، مع بضاعته التجارية، دينه الإسلامي، وحضارته الرّاقية.

ثم لعلّ إصهار كثير من التّجار المسلمين، لأهل الهند، واستقرارهم بينهم، كان له الأثر الفعّال، في إدخال كثير من العائلات الهندوكيّة، في دين الإسلام^(١)، لأن التّاجر المسلم صادق وأمين، يحرم عليه دينه

(١) المناظرة الكبرى بين الشيخ رحمة الله والدكتور «فندر» ص ١٩-٢٠ المصدر السابق.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويمر

الكذب، والخيانة، ثم بيّن المؤرخون: أن كثيراً من كبار «البراهمة» في الهند، وأصحاب المناصب في تلك الديار، دخلوا الإسلام عن قناعة، حتى إن أحد «راجاوات - أي حكام» الهند، في ذلك الوقت، أسلم وذهب إلى الحج، وفي طريق عودته توفي، فوجدت معه وصية، إلى نوابه في المقاطعات، يأمرهم بإكرام المسلمين، وتشجيع الدعوة، وتسهيل مهمتهم، وكان ذلك من الأسباب في بناء المساجد في ديارهم، وأشهرها مسجد البابر^(١).

ومثل هذا كثير في أرض الله، حيث اهتدى كثير من البشر، إلى دين الله الحق، بما رأوه من المسلمين بأفريقيا أيضاً، في أخلاقهم وأمانتهم، وصدقهم وحسن تعاملهم، من صفات جذبتهم إلى دين الله سبحانه، وجدوها في أيّ شأن من شؤونهم: دينياً ودنيوياً، يلمس هذا كل من يتتبع أخبار حجاج بيت الله الحرام في كل عام، فقد حجّ هذا العام ١٤٢٨هـ، مجموعة من القساوسة الأفارقة، الذي جذبهم للإسلام، ما فيه من صفات نبيلة، وما يحثّ عليه من أمانة كجزء من الصفات الحميدة فيه، التي يجدونها مفقودة عندهم^(٢).

(١) يراجع في هذا كتاب الدكتور عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند.

(٢) يراجع في هذا جرائد المملكة حج عام ١٤٢٨هـ والمقابلات المتعددة مع ضيوف خادم الحرمين الشريفين.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويمر

ومع الهجمة الشرسة على الإسلام في الآونة الأخيرة، نجد واحداً من الأخبار أيضاً، نشرته الصحف، في حج هذا العام ١٤٢٨ هـ يفيد أن خمسة من شيوخ القبائل في «تشاد»، ممن كانوا ضمن ضيوف خادم الحرمين الشريفين في الحج، ينبئ عن دخولهم بقبائلهم الإسلام.

وبعدما وصلوا إلى مكة المكرمة، وشاهدوا الكعبة المشرفة، لم يتمالكوا أنفسهم من البكاء رقة وخشوعاً لله. وعلى لسان رجل آخر من إحدى الدول الأفريقية: بأنه قد دخل الإسلام، من قبيلته دفعة واحدة، (٤٠٠٠٠) أربعون ألفاً. وهذا من فضل الله، وبما يؤدّيه الداعية الأمين المخلص من دور.

إذ يلاحظ أن كل من أسلم، ومن أيّ ملّة كان، يؤثر في من حوله، لإعجابهم: بأمانته وصدقه، ومحافظته على شعائر دينه، ولتغير طباعه.. بعدما اعتنق هذا الدين، وتأدّب بآدابه.

وما ذلك إلا لما يُرى عليهم، من آثار تعاليم الإسلام السمحة: من حفظ للأمانة، والتحلي بالصفات الحميدة، ومنها حفظ الحقوق، التي تُغلي من مكانة من يحرص على حُسن الأداء، ثم بما برز على صفات كلّ مسلم، من رغبة في التعامل الحسن، والاهتمام بالتوجيهات التي تحثّ على الخير والنفع سواء للفرد أو الجماعة والمجتمع.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

ويلمس ذلك في آيات من القرآن الكريم، تحتّ على الأمانة،
وتخاطب القلوب المتفتّحة، وتحرك الأذهان الصافية.

ورسول الله ﷺ، قد حمّله ربّه أمانة التبليغ: ﴿وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ مَا
بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾^(١).

وأتمته من بعده تحمل هذه الأمانة.. فواجب على كل فرد من
أتمته، مواصلة المسيرة، لكمالها ولأنّها خاتم الرّسالات، وقد ألقى
هذا العبء العظيم، على أتمته - كل بحسب قدرته واستطاعته، بقوله
الكريم: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»^(٢).

ويخاطب الله رسوله الكريم، في أهمية هذا التبليغ، لأنّه من أهم
المهمات، بهذا النداء التّوجيهي، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا
أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(٣).
والرسالات من أكبر الأمانات، لأنّها تبليغ عن الله، ولإنقاذ
البشر من المهالك، فقد حمّل الله سبحانه، آخر رسالة، ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٢) أخرجه البخاري من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، كتاب
أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث رقم (٣٢٠٢).

(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴿١﴾. وهي أمة محمد ﷺ، بصفات ملازمة لأمانة التبليغ، ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ ﴿٢﴾. فالمخاطب الأمة، لكن رسول الله قدوتهم، وأكرمهم عند ربّه، وأكثرهم أتباعاً، بما تحمّل من ثقل التبليغ، فكان يحذّر أمته من التهاون في واجب أمانة التبليغ: الخاصّة لدين الله، وأمانة أداء العامة، في كل أمر من الأمور الدينيّة والدينيّة، ووعدّه ربّه بالنصر، والعصمة من الناس، وأن يعتمد على خالقه ولا يخافهم.

فاستجاب، وصعد الصفاء، وصدع في الناس، منذراً ومخوفاً ﴿٣﴾. وما ذلك إلاّ أن نشر دين الله في البشريّة كلّها أمانة، يجب أن يتحمّلها، ويؤدّيها كل فرد مسلم، إبراء للذمة، ولتقوم الحجّة.

علاوة على الجماعات، الذين عليهم السّعي في أدائها بقدر الاستطاعة، حتى يخفّ عنهم حمل المسألة، إذ كل فرد على ثغر من ثغور الإسلام، يجب عليه أن يقف حارساً أميناً، يقظاً ليدافع - بقدرته - كلّ من يحاول التّيل من هذا الكيان، ويحمي الجانب الذي هو فيه،

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٣) يراجع في هذا تفسر ابن كثير لآخر سورة الحجر: ﴿فَأَصْدَقَ بِمَا تُؤْمَرُونَ وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

لئلا يدخل معه عدوّ متربّص، يريد المساس بجوهر هذا الدّين، كما جاء في الحديث الشريف، الذي أخرجه البخاريّ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «كلّكم راعٍ ومسؤول عن رعيّته، فالإمام راعٍ، ومسؤول عن رعيّته، والرجل راعٍ في أهله، وهو مسؤول عن رعيّته، والمرأة راعية في بيت زوجها، ومسؤولة عن رعيّتها، والخادم في مال سيّده راعٍ، وهو مسؤول عن رعيّته»، قال: هؤلاء من النّبيّ ﷺ، وأحسب النّبيّ ﷺ قال: «والرجل في مال أبيه راعٍ، ومسؤول عن رعيّته، فكلّكم راعٍ، وكلّكم مسؤول عن رعيّته»^(١).

وهذا يعضد ما جاء في الأثر: «كلّ منكم على ثغر من ثغور الإسلام، فالله الله أن يؤتى الإسلام من قبله».

وتكبر مسؤولية الأمانة، بحسب قدرة الإنسان، وما تحت يده، فقد جاء في آية من سورة الزخرف: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾^(٢)، تأكيد شامل للأمانة، للرسول الكريم ﷺ، وأهمية تأديتها، في إبلاغ شرع الله، ولأتمته من بعده. كلّ بحسب مسؤوليته وقدرته،

(١) ينظر جامع الأصول لابن الأثير تحقيق الأرناؤوط: ٤: ٥٠ وما بعدها الطبعة

الأولى ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

(٢) سورة الزخرف الآية: ٤٤.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

وموقعه في مجتمعه، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾^(١).

فكان الأمر بأداء الأمانة في تبليغ شرع الله، في هذه الآية مؤكداً، ومُلزماً للأمة بمواصلة المسيرة، جيلاً بعد جيل، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لانقطاع الوحي من السماء، بعد وفاة رسول الله ﷺ.

ولكن تبقى في الأمة أمانة الدعوة والتبليغ متواصلة، حيث يبعث الله للأمة، على رأس كل قرن، من يجدد الدين.. وتحت هذه المسؤولية، المناطة بمن له قدرة علمية، أو غيرها بحسب الأحوال في كل وقت و موقف.

فإن القادرين سيحاسبون عن هذه المهمة في أداء الأمانة إذا أهملوها، لا اعتبار ذلك واجباً عظيم المسألة، لما في النص، من تأكيد بعد تأكيد، حسب حروف التوكيد وأدواته.

وعلماء البلاغة يقولون: زيادة المبنى زيادة في تمكين المعنى. إذ تُنشر صحائف الأعمال، في يوم المعاد، ويتم النقاش من كل فرد، هل أدى دوره في الأمانة، كل بحسب حاله وموقعه، وهل وفى بما أُلزم به: أخذاً وعطاء، في أمانة التبليغ، أولاً فيما يتعلق بحق الله، ثم فيما يتعلق بحقوق المخلوقين.

(١) سورة البقرة الآية: ٢٨٦.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

وهل عرف قدر الأمانة حق المعرفة، وأداها كما يجب الأداء..
حيث إن صحائف الأعمال كما قال سبحانه: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا
يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ
أَحَدًا﴾^(١).

ولعل من أبسط الأمور، التي يتساهل فيها كثير من الناس: أمانة
الكلمة، وأمانة النظرة، وأمانة اللسان، وأمانة السمع... وأمانة حق
الجار، وحق الأمر بالمعروف . وهو مهم جداً . وغيرها من الأشياء
التي يتهاون بها بعضهم.

لأن كل من رُئي على خطأ أو معصية، ولم يُنصَح برفق ولين،
سوف يتعلّق أمام الله في ذلك الموقف بعنق من عَرَفَ ذلك عنه، ولم
يحاول تقويم اعوجاجه، فيئو بالحجة، إن لم يكن لديه ما يدفعها،
ويرفع الملامة عنه، سواء كان عالماً، أو جاراً، أو صديقاً، أو قريباً...
أو غيرهم.

ومن هذا يجب أن ندرك: أن كثيراً من أمم الأرض: قديماً
وحديثاً... منذ أشرقت أنوار الرسالة المحمدية من مكة المكرمة .
أشرف البقاع عند الله، وأحبّها عند رسوله ﷺ . وحتى اليوم ما
حرصت: أفراداً وجماعات، على الارتباط بدين الإسلام: عقيدة

(١) سورة الكهف الآية: ٤٩.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

وعملاً، وحماسة وامثالاً، ثم دعوة إليه باللين والرفق، ونموذجاً في التعامل، وصدقاً وأمانة، بعدما وقرت بشاشته في القلوب، إلا من إعجاب تلك الأمم بطبائع أبناء المسلمين الوافدين عليهم.

فرحم الله أولئك الرجال، الذين نقلوا وبأمانة صورة الإسلام، الذي هو الدين الحق، الذي أطلقه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، يقول سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١).

وهذا الدين: الإسلام لا يقبل سبحانه من المخلوقين غيره: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٢). وقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٣)، كيف لا يحوز المكانة العالية، من قلوب من دخل فيه، ويتحمسون لبيان محاسنه، بأمانة وصدق ووفاء، وهو الدين الذي اختاره الله جلّ وعلا لأمة محمد ﷺ، وما كان ليختار سبحانه إلا الأكمل والأحسن، يقول سبحانه، في آخر آية نزلت، في يوم الحج الأكبر، على رسول الله ﷺ، حيث اعترف أحد اليهود أمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه: بأنها لو نزلت علينا معاصر

(١) سورة الحج الآية: ٧٨.

(٢) سورة المائدة الآية: ٣، ويراجع تفسيرها عند ابن كثير والسيوطي والقرطبي.

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٩.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويمر

اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، فلما سئل ما هي قال: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١).

فأولئك الرجال، الذين فهموا بعمق، وحسن تطبيق، دلالة هذه الآيات، اتصلوا بأفراد وجماعات في أصقاع الأرض، مع تجارتهم وتعاملهم، ترافقهم صفات هذا الدين: صدقاً في الحديث، وتعاملاً حسناً، وأمانة في أداء الحقوق كاملة وفي وقتها، ومحافظة على أداء الشعائر الدينية، بانتظام وطهارة، وحسن مظهر، وحفظاً للمواعيد والمواثيق، وغيرها من الخصال التي تشوق إليها النفوس، ويتحقق بها، أمان القلوب، وأمان المجتمع، والأمان على المال والعرض والأبدان.

فدخلت هذه الخصال قلوبهم، ورغبوا في دين هذه قيمه ومبادئه، دخلوا فيه طواعية، وبأمانة ممن نقله إليهم: خصالاً عاينوها، وتعاملاً أنسوا به، ووفاء في الحقوق، وبركة في النتائج.

وفي هذا ردّ عملي، على من قال: إن الإسلام لم ينتشر إلاّ بحدّ السيف، والقوة، بل يرد هذه المقالة: إبقاء المسلمين لأهل الكتاب، ومن شاكلهم على دينهم بدون إكراه، ولا مضايقات لا يمسّهم شيء،

(١) سورة آل عمران الآية: ٨٥ ويراجع تفسيرها عند ابن كثير في تفسيره، وعن مكان ويوم النزول.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويمر

ما داموا لم يخونوا، ولم يرفعوا راية ضد الإسلام، أو يعينوا عدوًّا على المسلمين.

يوضح ذلك ما جاء في معاملة أبي عبيدة بن الجراح «أمين هذه الأمة»، حسب تسمية رسول الله ﷺ له، لأهل الشام بعد فتح دمشق.

وما جرى بين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكبير قساوسة بيت المقدس، بعدما استلم منه المفاتيح لبيت المقدس، وأكل طعامه، ولما طلب منه أن يصلي في كنيستهم «كنيسة القمامة»، فإنه تنحى عنها، وصلى في خارجها، قائلاً: «أخشى أن يغلبكم عليها المسلمون».

ولا زال مسجد عمر هذا، وباسمه أيضاً، عند بابها، شاهداً على حرص قادة وعلماء ووجهاء الإسلام والمسلمين، على رعاية الأمانة في أهل الكتاب، والمحافظة عليهم، امتثالاً لأمر الله جلّ وعلا: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾^(١).

وإن كان طراً على المسجد المذكور شيء، فمن خيانة اليهود، واعتداءاتهم.

بل توج ذلك عمر رضي الله عنه، لما دخل دمشق مع أبي عبيدة: بالشروط العمرية التي زادت عن أربعين شرطاً، وطبعت حديثاً في رسالة مستقلة، لتمييز بها الكتابي عن المسلم في المظهر، لكي يُعرفوا

(١) سورة الكافرون الآية: ٦.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

وَيُؤَدِّي كُلُّ مِنْهُمْ دَوْرَهُ وَمَهْمَتَهُ.. مِمَّا كَانَ سَبَباً فِي دُخُولِ كَثِيرٍ مِنْهُمْ
الإسلام بطواعية، وبحسن اختيار، ولا إكراه.

بل زاد عمر عليه السلام، في الإحسان إليهم، لَمَّا رَأَى رَجُلًا مُسْنَأً،
أَنهَكَتْهُ الْأَيَّامُ، فَعَجَزَ عَنِ الْعَمَلِ، لِيُؤَدِيَ مَا عَلَيْهِ، فَأَمَرَ عليه السلام بِإِعْطَائِهِ مِنْ
بَيْتِ الْمَالِ مَا يَكْفِيهِ، قَائِلًا: مَنْ حَقَّهُ أَنْ يُعْطَى كِفَايَتُهُ مِنْ بَيْتِ مَالِ
الْمُسْلِمِينَ، فِي كِبَرِهِ وَعَجْزِهِ، مَا دَامَ وَفَى بِمَا عَلَيْهِ فِي قُدْرَتِهِ، وَهَذَا مِنْ
حَقِّ الْأَمَانَةِ وَالْعَهْدِ ^(١).

وغير هذا من صفات، هي النموذج الذي ترنو إليه قلوب البشر،
وتركت آثاراً في عقلاء أهل الكتاب على مرّ العصور، نأخذ مثلاً من
عمر بن عبد العزيز - رحمه الله -، عندما تولّى الخلافة، فقد جاء إليه
وفد من إحدى المدن الرومانية، يشكون مسلمة بن عبد الملك، قائد
الجيوش الإسلامية هناك، الذي استباح بلدتهم، ولم يسبق ذلك منه
إنذار بدعوتهم للإسلام، ويمهلهم ثلاثة أيام، كما هي تعاليم هذا
الدين، أخذاً من حديث معاذ بن جبل لأهل اليمن، ومن وصايا
رسول الله عليه السلام، لقادة السرايا والجيوش، كما في سيرة ابن هشام..

فقد سبى وقتل.. فغضب عمر بن عبد العزيز يرحمه الله، وكتب

(١) يراجع في هذا فتوح البلدان للبلاذري، منشورات دار الهلال بيروت عام

١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، ص ١١٥-١٤٠ وتاريخ ابن كثير والبداية والنهاية: ٧: ٦٨-٧٥.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

لمسلمة بالخروج من بلدتهم، وإعادة ما أخذ منهم، ودية قتلاهم، ثم توجيه الدعوة إليهم بالإسلام أو الجزية، وإمهالهم ثلاثة أيام، فإن أجابوك، وإلا فاستعن بالله وقاتلهم.

وهذا من عمر رضي الله عنه، تأكيد لحق الأمانة في الدعوة لدين الله، وفق ما رسم رسول الله ﷺ، لمن يبعثهم في الغزوات، والسرايا، وهناك أحاديث، وردت عن رسول الله ﷺ في الموضوع، هي من وصاياه عليه الصلاة والسلام للمجاهدين في سبيل الله، حتى تكون الدعوة إلى الله على بصيرة، وبأمانة بلغهم بها رسول الله ﷺ، وأخذها تطبيقاً وعملاً من بعدهم، بالتبعية والامتثال، كما حصل في غزوة بني المصطلق .

وهذا مما أخذه عمر بن عبد العزيز، على مسلمة، بعد ما عزله: بالعتاب والمناقشة، حتى يؤصل الاسترشاد في النفوس، بهدي رسول الله ﷺ في العمل والأمانة.

فلما فعل مسلمة ما أمره به أمير المؤمنين: عمر بن عبد العزيز، ودعا الرومان للإسلام، وأمهلهم ثلاثاً، أو الجزية، أجابوه، وحقنوا الدماء، وحفظت الأموال ^(١).

(١) تراجع سيرة عمر بن عبد العزيز وفيما كتب عنه، وكتاب محاضرات الأبرار لابن عربي ٢: ص ٣٩٠. ٤١٠ دار القفزة بيروت.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

وما وازب المسلمون على هذا الخلق الحميد، الذي ترك انعكاساً متميزاً، في قلوب من يتعاملون معهم، إلا أن الأمانة التي حثهم عليها دينهم، وأدّوها التزاماً وعملاً، كانت صفة طيبة، وذات أثر عند الآخرين، وأعجبوا بها، لأنها من عند الله، وأمر بها رسوله الكريم، لما يرون في الامتثال بها من أهمية كبيرة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (١).

يقول واحد من كبار المستشرقين، في مؤتمر الاستشراق التاسع، الذي عقد في القدس، في مطلع العام الميلادي المنصرم، مع إرهابات الحرب العالمية الأولى، ضد الخلافة الإسلامية العثمانية: لو طبق المسلمون تعاليم دينهم، وأدّوا في ذلك الأمانة، التي أمروا بها، كما عمل أسلافهم، لانقادت أوروبا للإسلام، بطوعية.

إنهم يمثل هذه المقولة، يدركون - بما درسوه عن الإسلام - صفات السمو والرفعة في هذا الدين، ومنها الأمانة، فكان من وصاياهم، بذل الجهد في مباحة أبناء الإسلام، عنها بالتساهل، وعدم الالتزام، حتى يخف ميزان الإسلام من قلوبهم، وليعملوا جهدهم، في محاربة تلك الصفات، حتى لا تنتشر في مجتمعهم،

(١) سورة النساء الآية: ٥٨.

فيميل أبناء ملتهم للإسلام.

أما أبناء المسلمين، وخاصّة عندما يختلطون بهم، فإنّهم يسعون لبثّ الشّبّهات، وتسهيل المغريات، ليتخلّوا عن كنوز دينهم في السلوك والعادات، وعدم الالتزام، تقليداً بدون هدف، فتضيع عندهم الأمانة، التي هي أول ما يفقد من الدين، ثم بعد انفتاح الباب، تتوالى المصائب، ولا عاصم من ذلك، إلّا من عصمه الله، والأرض لن تخلو من أهل الخير، الحريصين على الثّبات والعمل.

يقول ﷺ، مخبراً عمّا سيحصل لأمتّه، عندما يتكاثر عليها الأعداء: «لتبعنّ سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضبّ لسلكتموه، قلنا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: فمن»^(١).

ثم أخبر في حديث آخر^(٢)، بأن المهابة تنزع من قلوبهم، ولا يزيل ذلك إلا العودة إلى الدين، والتّمسك بخصاله الحميدة: عملاً ودعوة، ومنها الأمانة التي عليها مدار كثير من الأعمال.

(١) أخرجه الإمام البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء: كتاب ما ذكر عن بني إسرائيل برقم: ٣٤٥٦، ومسلم برقم: ٢٦٦٩.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢١٨٩١) وأبو داود، كتاب الملاحم، باب تداعي الأمم على الإسلام حديث رقم (٤٢٩٧).

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

لذا يجب أن يدرك كل مسلم، أن الأمانة على مكانتها وأهميتها تطبيقها، فإنّها: صفة مدح ترتسم وساماً على جبين كل مؤمن، فترفع قدره، وتثبت إيمانه.. فيعتزّ بها، حيث عظم الله منزلة المؤمنين، بحرصهم واهتمامهم، على أدائها، على وجهها الحقّ، وبالمحافظة على كل خصلة عمل له ارتباط بالأمانة، لأن الله عظم منزلة المؤمنين الملتزمين بالأمانة: عملاً واعتقاداً.

والعهد وثيق الصلة بالأمانة، كما أن الإيمان مقترن بالأمانة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾^(١).

هذا في باب المدح، الذي تقوى به النفوس، ويدفعها للمزيد، والمحافظة على خصلة الأمانة... وما يتعلّق بها.

أما الترهيب، من التساهل فيها وإضاعته، فقد جاء في كتاب الأحاديث المختارة، ممّا لم يخرج به البخاري، ومسلم، في صحيحيهما، للعلامة الشيخ ضياء الدين: محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن المقدسي، الحنبلي دراسة وتحقيق د. عبد الملك بن دهيش: حديث بالسند إلى المغيرة بن زياد الثقفي، قال: سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له،

(١) سورة المؤمنون الآية: ٨.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويمر

ولا دين لمن لا عهد له»^(١). والعهد من الأمانات.

وتأتي الأمانة في كثير من الأوامر الشرعية، مقترنة بالإيمان، فهما متلازمان، وما ذلك إلا أن صفة الأمانة مع كون اشتقاقهما اللغوي واحداً، لا تتأصل إلا في جذور الأئدة الطيبة المؤمنة، ولا تستقر إلا في سويداء القلوب، المطمئنة الطاهرة، المستنيرة بنور القرآن الكريم، والحريصة فهماً واستيعاباً، ثم تطبيقاً وعلماً، للسنة المطهرة.

حفظ الأعراض:

لئن كانت قد عصفت بالمسلمين في الصدر الأول، عاصفة وقع فيها من وقع، إمّا عن حسن نيّة، من الصحابة رضي الله عنهم وغيرهم، أو خبث طويّة، من بعض الوافدين على المدينة - من غير الصحابة رضي الله عنهم - الذين يحملون نزعات وغايات، وبعض الشبهات التي وقع فيها من وقع، كما يمرّ بالأفراد والجماعات، في كل زمان ومكان مثلها أو أقل منها ضرراً.

هذه العاصفة تعتبر أول فتنة، في مدينة رسول الله ﷺ، وكان أبرز ضحاياها: الخليفة الراشد الثالث: عثمان بن عفان رضي الله عنه، وبعض

(١) ينظر هذا الكتاب ٧: ٢٢٣ - ٢٢٤ برقم ٢٦٦١، ٢٦٦٣ الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ -

١٩٩٣م مكتبة النهضة الحديثة بمكة.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

الصَّحابة الأخيار، فإن من الأمانة: قديماً وحديثاً عدم الدخول فيما شجر بينهم، وعدم تكرار الحديث: تحليلاً وتفسيراً .

فقد فسّره بعضهم - من باب التّلبيس على الصحابة وغيرهم - بمنظرهم المخالف لما ارتسم في مخيلة علماء الإسلام، الذين سكتوا عن الخوض فيها، حفظاً للأعراض، وتورّعاً ومهابة، وإجلالاً للرّيعل الأول، وهم الصحابة خير هذه الأمة، وقالوا عمّن شارك: كلّ منهم مجتهد، فرضي الله عن مصيبيهم، وغفر الله لمن أخطأ منهم.

وقد ندم واعتزل بعضهم، بما ينير الدرب للآخرين.. للابتعاد عن الأمور المشتبهة بعدما أقدموا على سفك دم حرام، فيه وعيد من الله ورسوله.

ولم يتعرضوا للصحابة، بقدرح، ولا للعمل بتأييد.. وهذا من أمانة حفظ اللسان، وأمانة الذبّ عن أعراض الجيل الأول، لأنّهم خير القرون من بعده ﷺ، ومن أمانة السكوت عن الفتنة «لأنّ من ردّ عن عرض أخيه، ردّ الله عن وجهه النّار يوم القيامة»^(١).

وجاء عند أبي داود، حديث عن معاذ بن أنس الجهني، رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حمى مؤمناً من منافق، بعث الله له ملكاً

(١) أخرجه الترمذي عن أبي الدرداء مرفوعاً، وحسنه: ينظر كشف الخفاء للعجلوني

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

يحمي لحمه، يوم القيامة من نار جهنم، حتى يخرج ممّا قال»^(١).

وبين فينة وأخرى، يأتي من ينبش هذا الموضوع، إرضاء لأهل الأهواء، ولمن يحبّ الإثارة في التليس والكذب والدس، في تاريخ الإسلام، وبوقاً لأصحاب الغايات التي تتكرر من آن لآخر، ليفسروا الوقائع كما يحلو لهم، وفق تحليل المستشرقين للوقائع.. من زاوية الدس في تاريخ الإسلام، باسم الدراسة التحليلية، وإعادة قراءة التاريخ، ومثلهم من يخوضون في أعراض: علماء وقادة الإسلام، بما يريدون، لما فيه من إرضاء لأولئك المستشرقين..

لكنّ الله سبحانه وتعالى، يقيض رجالاً يدافعون، وينقضون تلك الشبهات، ويذبّون عن أعراض أسلافنا، وهم كثير بحمد الله، في كل زمان ومكان.

وقد وقع نظري على كلام للشيخ: محمد الغزالي - رحمه الله - سخر قلمه لمّا رأى رؤوساً للفتنة، بدأت تبرز في وقته، في كتابات: عبد الرحمن الشّرقاوي، وروايات: جرجي زيدان، وما صاراً يلبّسان فيه، لأغراض في النفوس، ممّا لا يحكي تاريخاً إسلامياً محترماً كما جاء في كلام الشيخ محمد الغزالي، لأنّ:

(١) ينظر جامع الأصول لابن الأثير، تحقيق الأرناؤوط بيروت عام ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

الأول: يساري: جعل الإسلام وتاريخه، مصبوغين باللون الأحمر، والتفكير الماديّ وخان أمانة النّقل، في تحليله للحوادث، سوقاً لخدمة هذا الغرض.

والثاني: صليبي ينفث ضغائنه على الإسلام بلّوم في كتاباته ورواياته^(١).

ليرد عليهما فيما أوردها من مغالطات وافتراءات، يجدّدها أصحاب الأهواء، ويعيد صداها في كل وقت من يتبنون فكرهم، ويريدون نشر شبهاتهم، نقلاً لآراء مَنْ وراء تلك الافتراءات، ليرضوهم بكونهم ينقلون رجع أصدائهم، كنموذج لما يتجدّد على السّاحة، بين آونة وأخرى.

والشيخ الغزالي - رحمه الله - ، بما لديه من غيرة، هو واحد من علماء هذا العصر، الذين سَخّروا علمهم وأقلامهم، كجزء من الأمانة، للدّفاع عن الإسلام، وتفنيد الشّبهات الوافدة وما أكثرها: حمية وغيرة.

ولنا معه عودة، بعد المرور بنماذج من جهود السابقين، في رعاية هذه الأمانة، ليعرف القارئ والمستمع: الشّبه بين الليلة

(١) كتاب علل وأدوية للشيخ محمد الغزالي نشر دار إحياء التراث الإسلامي قطر الدوحة الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ص.

والبارحة، وما أكثرها.

لقد قال ﷺ، في حديث أبي موسى الأشعريؓ، الذي جاء فيه: «بأنه كان مع رسول الله ﷺ، في حديقة بني فلان، والباب علينا مغلق، وفي استفتاح الرجل الثالث، وكان رسول الله ﷺ، ينكت الأرض بعود، قال عليه الصلاة والسلام، يا عبد الله بن قيس - وكان هذا هو اسم أبي موسى الأشعري - : قُمْ فافتح له الباب، وبشّره بالجنة، على بلوى تصيبه. قال: فقممت ففتحت الباب، فإذا أنا بعثمان ابن عفّان، فأخبرته بما قال رسول الله ﷺ. فقال: الله المستعان، وعليه التكلان ثم دخل فسلم وقعد»^(١).

هذه المصيبة التي حلّت بعثمان، ونسج حولها المستشرقون، روايات وشبهات، تعتبر باب فتنة، انكسر ولم يغلق، نشأ عنه نحْلٌ، ومِلٌّ، وتبنّاها أناس أضاعوا أمانة الكلمة، وفتحت باباً للفتن، وتعدّد الطوائف، ذات التّزعات والغايات ضد الإسلام، ووحدة المسلمين، ببثّ الفرقة، واختلاف الكلمة ونشر الأكاذيب.

فاهتم علماء الإسلام، للتفنيد وبذل الجهد، لتعرية أصحاب

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب نكت العود في الماء والطين حديث رقم

(٦٢١٦)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير إصدار كتاب الشعب

القاهرة معه ١٩٨٤ م، ج ٣: ٥٨٦ - ٥٨٧.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

الأهداف، ودحض تلك الشبهات، في حماسة لأداء الأمانة، في تصحيح المسار وحماية الأعراض، ومن أولئك الكثيرين - بحمد الله - شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وتلاميذه وأحمد بن حنبل، وابن حزم والشهرستاني، في كتبهم، وغيرهم في ردودهم... ومحاولاتهم كشف ما وراء الأقاويل والنزعات، لإبانة الحق، بدليله وتعرية الآراء الباطنية، وكشف ما وراء أقاويلهم.

تلك التعددية التي برزت لأول مرة في تاريخ الإسلام، ثم بدأت دائرتها تتسع، أوقد جذوتها، أناس وفدوا للمدينة، لمآرب وغايات خفية، وسعوا جاهدين لإشعال نار الفتنة والفرقة، في المجتمع الإسلامي، ولا يريدونها أن تنطفئ. ممتطين راحلة الخيانة في الكلمة: سواء كانوا من جلدتنا ويتسمون بأسمائنا، أو كانوا متصفين بصفات وأعمال من فضحهم الله في سورة التوبة.

إن أعداء الإسلام، لا يكلّون ولا يملّون . كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: عجت لأهل الباطل وتصلبهم لباطلهم، ولأهل الحق، ونكوصهم عن حقهم^(١).

إلا أن تلك الأمور، التي تأتي في معرض الحق، ويراد بها

(١) تراجع سيرة عمر رضي الله عنه، في سير أعلام النبلاء للذهبي، القسم الخاص بالخلفاء الراشدين.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

الباطل، تبرز وتظهر: بثوب جديد، وأكاذيب تَقْلِبُ الحقائق، وتغلف بكساء يراد منه تغيير الاسم، مع أن الجوهر واحد.

فيهى الله - في كل مكان وزمان - من يتحمّس للدّفاع وتفنيد تلك الأمور، المراد منها التّلبيس، وصُرِفَ الأمانة العلميّة، عن مسارها الصحيح، حتى يبرزوها لنظر قاصري الاطلاع، برّاقة تتمشى مع الواقع، الذي هدف إليه صاحب الشّبهة، ويسميها دراسة تاريخيّة جديدة، أو تنقية التاريخ والحوادث.

فَيَقِيضُ الله مَنْ يشعر بأمانة الدّفاع، ونقض الشبهات، من أمة الإسلام لينبري للدّفاع. ذلك أن أمة الإسلام لا تزال بخير، ما دامت النّوايا طيّبة، والعقيدة التي عليها مدار الأعمال سليمة، ومحبة دين الله صادقة في القلوب، فإن الغيرة تتحرك بالعلم، أداء لأمانة المدافعة، وردّ الشّبهات، والله سبحانه هو المعين، لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١).

فالشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - لمّا رأى هجوماً شديداً، على المسلّمات التاريخيّة، في تراث الإسلام، مما يراد طمسه أو مسخه، باسم الدراسة التاريخيّة، أو القراءة الجديدة للتاريخ، نتج عنها هجوم شديد، وقَلَبَ للحقائق، فتحمّس في الردّ، وقال: إنّ أعداء

(١) سورة البقرة الآية: ٢٨٢.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

الإسلام، يريدون تحويل الهزائم العسكرية للإسلام، إلى انسحاب عام من كل ميدان، بل إلى اندحار شامل، يقطع يومنا عن الأمس الزاهر، ويجعل المسلمين أمماً متقطّعة، ذات اليمين وذات الشمال، كذلك يريد الغزو الثقافي، وبهذا يتحرك في الصحف وسائر مجالات الإعلام، ولكننا لهم بالمرصاد.

ونحن نعلم أن أمة سَلَحَتْ، أكثر من أربعة عشر قرناً، وهي تحمل رسالة كبيرة، لا بدّ أن يكون لها سلبيات وإيجابيات، وهزائم وانتصارات، لكن هذا لا يقدح في تاريخها، ولا جهود رجالها. ولذا فإن دراستنا للتراث، بل لعلّها جزء من الغيبوبة، التي نالت منا ولا تزال.

ولقد كنّا إلى أمد بعيد، نحارب الاستعمار الثقافي، الذي يريد اقتلاعنا من جذورنا، ويشدّنا إلى مللٍ ونحلٍ، لا نعرفها ولا نريد أن نعرفها.

حتى فوجئنا بمن يغوص في تراثنا، ليُحَرِّف الأمانة العلميّة، ويحرّف الكلم عن مواضعه، ويبرز لنا سلفنا الأول، أقزماً مُلتأثين، أو سباعاً تتهاوش على أعراض الدنيا، ومآربها الخسيسة.

ومن ثمّ يمكن الالتواء بزماننا، كي نقلّد أو نلحق بفلسفة

أخرى، ونستبدل بوحى الله، هَوَسَ أهل الأرض^(١).

هكذا يرى الغزالي بصفة عامة: الغزو الثقافي وحمَلَتُهُ، الذين ضيَّعوا الأمانة، لينساقوا مع فكر وتحليلات أعداء الإسلام، في رغبتهم هدم قاعدته الأساس، ثم يوضِّح دوره في الردِّ عليهم بقوله: وقد حاولت في أحد كتبي، تجفيف المنابع التي ترشح بالحقد، وتفيد أعداء الإسلام وحدهم.

ولما كانت دراسة الماضي، تقع للعبرة لا للتجريح، وللبناء لا للهدم، فإن أئمة الفقه والتاريخ، والتوجيه العام قالوا، عما حصل من فتنة: دماء طهَّر الله أيدينا منها، فلا نلوِّث أفواهنا بها، وقد حكَّتْ كثرة المسلمين: بأن فلانا أصاب، وفلاناً أخطأ، وكان ذلك عن اجتهاد، يعرف علام الغيوب، ما وراءه من قصد، وسيحكم بينهم في اللقاء الأخير.

فيجب أن نقف حيث وقفوا، فكيف يأتي من ينبش الماضي، ويفسِّر وقائعَه على هواه، ألا يكون الأجدر به دراسة ما يثير الدهشة، بكون المدينة أصبحت مفتوحة، لمن هبَّ ودبَّ: من المجوس واليهود، وأتباع الملل التي اجتاحتها الإسلام، فإذا هم يملكون في

(١) كان هذا في ردِّه على مسلسل ينشره عبد الرحمن الشرقاوي، في صحيفة الأهرام المصرية، وينظر كتابه علل وأدوية.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

داخلها، حرّية الكيد والفتك، وإذا بثلاثة من الخلفاء، بعد أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين، يُقْتَلون كأنهم ذهبوا ضحايا أحقاد شخصيّة، أو ثورات محلّية - يعني: عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفّان، وعلي ابن أبي طالب - رضي الله عنهم جميعاً -.

ورغم أن العرب في تاريخهم الطّويل، يمقتون الغدر، فإن الإسلام هذّب طباعهم، وحزّم دماءهم وأموالهم وأعراضهم، عليهم يومهم ذلك: وهو يوم الحج الأكبر، في بلدهم وهي مكة، في شهرهم وهو شهر ذي الحجة، ومن الأشهر الحرام.

ثم يطلب تحليلاً عن بعض الوقائع، التي عصفت بالمجتمع المدنيّ ذلك الوقت، فيقول:

بل كيف يقتل مجوسيّ عمر بن الخطاب، ﷺ بتلك السّهولة، وكيف يزعم أحد اليهود أنّه وجد مقتله في التوراة.

وكيف قُتل سعد بن عباد، زعيم الأنصار، قبل أن يقتل عمر بن الخطاب، ﷺ ثم يشاع أن الجنّ، هم الذين قتلوه.

وكيف اقتحمت وفود مجلوبة، من أقاصي البلاد، دار الهجرة، وأصبحت سيدة الشّارع الإسلامي، وصاحبة السّطوة فيه، لتقتل الخليفة الثالث، بكل هدوء على ارتكاب جرائمهم.

أليس ظاهراً أن اليهود والمجوس، تظاهروا على ارتكاب

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

جرائمهم، في جوّ البراءة السائد بين المسلمين.

ثم يحكم بأن وقائع عندنا حافلة بالعجائب، وهي كتب تحتاج إلى أمناء يستخلصون الحق، بالتزاهة وتحرّي الأصوب، وتنقيته من الشوائب والأهواء، ومن دس أعداء ديننا، الذين يسعون جاهدين في تشويهه، ورميه وقادة الإسلام وعلماءه، بما ينقص قدرهم ويحطّ من مكانتهم^(١)، ونحمد الله أن في المجتمع كثيراً، أمثال الغزالي حمية وحماسة.

وحتى لا يكون العارفون، والحاملون للإرث الشرعي، مقصّرين وسائرين في منحدر أهل الكتاب، في تضييعهم الأمانة في المأخذ والتأدية، حيث بين سبحانه وتعالى: أن منهم فئتين: ضعيفة الإيمان، ومن يدّعي لنفسه الإيمان.

ومعلوم عند العلماء: أن الإيمان ليس بالتّحلي والتّمني، وإنما هو اعتقاد في القلب، وعمل بالجوارح، وقول باللسان.. فلا بدّ من تحقيقه على هذه الصّور الثلاث.

يقول جلّ وعلا عن أهل الكتاب: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ

(١) يراجع كتاب الشيخ محمد الغزالي: علل وأدوية، وخاصة موضوع: الأمانة في

نقل التراث ص ٢٦٥ - ٢٨٢. مطبوعات دار إحياء التراث الإسلامي: الدوحة

قطر الطبعة الأولى عام: ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

قَائِمًا ﴿١﴾.

فهم بهذه الآية الكريمة، فئتان: واحدة تتهاون بالأمانة، ولا ترى لها حرمة، ولا تُؤدّي إلّا بالمتابعة والملاحقة، والخوف من البشر، وليس من الله، ولا بوازع عقديّ، فمن خان الأمانة أو تهاون بها من المسلمين فهو شبيه بهم.

والثانية: فيرجى من أصحابها، إذا سمعوا الذكر، وبانت لهم حقيقة الرسالة، وما فيها من مخاطبة للضمائر التي تزن الأمور، أن ترعوي لدين الله الحق.

ويؤخذ مقياس هذا الإيمان: بأركانه الستة، بالأمانة والمحافظة عليها، أداء أو خيانة أو جحداناً، وما ذلك إلّا أن الأمانة، التي بين الله سبحانه ثقلها، وأثرها في مواطن متعددة من الكتاب الكريم، وأكّد هذه المكانة رسول الله ﷺ: بفعله ودعوته.

فقد بين سبحانه، ثقلها في سورة الأحزاب، وحثّ على أهمية أدائها، وجعلها مقرونة بالإيمان، الذي هو عقيدة مع الله، ودعامة كبرى يرتكز عليها دين الإسلام، وركن أصيل من أركان هذه العقيدة، حتى لا يخفّ ميزانها في القلوب... ومن ثمّ في التعامل.

وهذا ما يخشاه ويخافه العاقل، أن يتساهل بعضهم، في حقّ

(١) سورة آل عمران الآية: ٧٥.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

الأمانة، في أيّ شأن، لما وراء ذلك من أضرار بالمصالح الفردية والجماعيّة، في أمور الدين، قبل النتائج الدنيويّة.

إذ مع ما وهب الله سبحانه، السماوات والأرض والجبال، من قوّة وشدّة في التحمل، وعظمة في الخلق، إلّا أن هذه الكائنات، قد تبراّت أمام خالقها من الأمانة، وأبّين أن يحملنها، وأشفقن منها، مخافة من عقاب الله الشديد، لمن قصّر في أداء هذا الدور العظيم، وهذا ما يجب أن يدركه، في هذا الزمان كثير من الناس، ممن استهوتهم الدنيا بريقها، وبدؤوا يستخفّون بالأمانة، ويفتون أنفسهم بأنّ الحلال ما حلّ في يدك.

ولأنّ الإنسان الضعيف في قدراته، والضعيف في جسمه، والعاجز عن حمل صخرة صغيرة من الجبل، قد كلّف نفسه فوق طاقتها، ليحمل هذه الأمانة، ذات المسؤولية الكبيرة، والثقل الذي تبراّ منه، أعظم مخلوقات الله – المعهودة عندنا – وكما هو ظاهر لنا بالمقاييس، وثابت ذهنيّاً وعقليّاً عند البشر.

ولم تهن الأمانة في بعض القلوب، إلّا لأنّ الشيطان، رانت وساوسه على قلوبهم، واستزلّهم ببعض ما كسبوا، تبين هذه المقارنة بمفهوم حديث، رواه الإمام أحمد رحمه الله، عن رسول الله ﷺ، مضمونه: «أنّ الله سبحانه لمّا خلق الجبال، قالت الملائكة: يا ربّ

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

هل هناك خلق أعظم من الجبال؟ قال: نعم الحديد، قالت: يا ربّ وهل هناك أعظم من الحديد؟ قال: نعم النار، قالت: يا ربّ وهل هناك أعظم من النار؟ قال: نعم الماء. قالت: يا ربّ وهل هناك أعظم من الماء؟ قال: نعم الريح. قالت: يا ربّ وهل هناك أعظم من الريح؟ قال: نعم ابن آدم يتصدّق بيمينه يخفيها عن شماله»^(١).
وهذا من الأمانة التي يزداد أجرها، كلّما أدّيت بخفية .

مداخل الأمانة:

والأمانة ليست أمانة المال المستودع، ولا العَرَض الذي يتعامل به الناس: بيعاً وشراءً، ومداينة واستيداعاً، ولا أخلاقاً يتحصّل عليها الفرد، ليكسب بها محمّدة، أو ثناء عند الآخرين، أو تكون بدافع شخصي، ينال به أرباحاً ماديّة أو معنوية.

بل هي أوسع دائرة، وأعظم أثراً.

فمن ذلك الأمانة السّرية في جميع الأعمال: فإن من أعمال بني آدم، الذين يريدون بها وجه الله، استجابة وأجراً، هذه الأمانة التي لا تبرز أمام الآخرين، إلّا عَرَضاً... مَطْلَبُ صاحبها رضى ربه حتى

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسند المكثرين من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه، حديث رقم (١٨٠٥)، والترمذي كتاب التفسير، باب ومن سورة المعوذتين، حديث رقم (٣٢٩١).

للعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

ترتفع مكانته عنده سبحانه، لأنّه بادر بإخفائها، وأداء حقها في وقتها، مراقبة لأمر الله سبحانه، وخوفاً من عقابه، قبل أن تزلّ قدم بعد ثبوتها، وما ذلك إلّا أن الأمانة كلّما استقرّت في الوجدان، ظهر أثر العمل، وحسن الأداء، بالدافع من القلب، لأداء الجوارح: تعظيماً لله في حقّ الأمانة عند الأداء.

أما إذا خفّ ميزان الأمانة، عند بعض الناس، وعدم المبالاة بحقّها، جحوداً لمكانتها، متجاهلاً أو متهاوناً بعقاب الله، فإن هذا دليل على ضعف الوازع الإيمانيّ، الذي إن لم يتدارك المرء نفسه، قبل فوات الأوان، فإنّه يخشى عليه، من العاقبة السيئة.

ورسول الله ﷺ، قد وثّق رابطة الأمانة بالدين، الذي هو مهمة الإنسان في هذه الحياة، والسرّ الذي خلق من أجله، وهو عبادة الله سبحانه، والمحافظة على الأمانة، جزء من عبادة الله: في نفسه، وفيما حوله، وما تحت يده: امتثالاً لأمر الله، ومحافظة في الأداء.

وما جاء في شرع الله، قد بثّه رسول الله ﷺ في أمّته: قدوة في العمل، وإيضاحاً للأمة، وحثّاً على حسن الأداء.

ألم يقل ﷺ في الحج: «خذوا عني مناسككم».

وفي الصلاة: «صلوا كما رأيتموني أصلي».

وفي التبليغ: «ألا فليبلغ الشاهد الشاهد الغائب».

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

وفي الدعوة: «بلغوا عني ولو آية. قرب مبلغ أوعى من سامع». والمنطلق في ذلك، ما بينه رب العزة والجلال، في سورة الذاريات، عن المهمة من خلق الله سبحانه: الجن والإنس، حيث قال جلّ وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ﴾ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿١﴾.

ومن هذه المهمة: أبان رسول الله ﷺ، عن مكانة الأمانة من الدين الحقّ. وهو الإسلام الذي لا يقبل الله من الثقلين ديناً غيره، وهو من خصوصيّة أمة محمد ﷺ، وأكرمهم الله به، ورفع منزلتهم به بين الأمم، فصاروا كما قال سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (٢).

وأمة محمد ﷺ، ليست مقتصرة على العرب وحدهم، ولكن كلّ من انقاد للإسلام، وامثل أوامره، واجتنب نواهيه، فهو من أمة محمد ﷺ... ويستحقّ مكانته بالخيريّة، بحسب نيّته وعمله.

والمتعمّن في التاريخ الإسلامي ورجاله، يدرك الدور الذي أدّاه الأعاجم، والأمانة التي تفانوا في الاهتمام بها: في العلوم وحفظ السنّة، والدفاع عن دين الله، والصدق والأمانة في الحفاظ على

(١) سورة الذاريات الآيات: ٥٦-٥٨.

(٢) سورة آل عمران الآية: ١١٠.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

مكتسبات الإسلام، وصيانتها.

وفي هذا الحديث، الذي جاء بطرق متعدّدة، وصحّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، جاء هذا النص: «أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة - وفي رواية - وآخره الصلاة». يعني: بأن آخر ما تفقدون من الدين الصلاة»^(١).

وهذا إنذار لكلّ مسلم، عن أهمية وعظم الأمانة، ومكانتها من عقيدة المسلم، وعدم التساهل فيها، لأنّ شيئاً فقد أوّله، حريّ بالتهاون أن يفقد آخره تدريجياً، وبذلك يضع الدين من الإنسان، ويهلك.. بضياع الأمانة: اعتقاداً وعملاً.

وهذا ما يحرص عدوّ الله، إبليس عليه في تثبيط الناس عنه: كسلاً ثم تهاوناً فاستمراء، ثم التّرك بالكلّيّة، ويعاونه على ذلك، أعوانه من الإنس والجن: الإنس بالتّسويق والأمانيّ والتهوين، بمكانة الأمانة، والجنّ من المردة والأبالسة، بالوسوسة والآمال، والعاقل يدرك: أن من ضلّ وغوى، لا يتهنّى إلّا بجرّ الآخرين إلى المنحدر الذي أوصلتهم إليه: الاستهانة بالأمانة، والتّمادي في إهمال دورها.

والصلاة من الأمانات المستحفظ عليها الإنسان، بالنية الصّادقة،

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألباني برقم: ١٧٣٩ نشر دار المعارف

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

وإسباغ الوضوء، والطمأنينة في الركوع والسجود، وسائر الأركان، والواجبات والشروط، المرتبطة بهذه العبادة، التي مدح الله الخاشعين فيها، فقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾^(١).

ولم يقتصر الأمر بالثناء على الرجال الخاشعين، بل حتى النساء شريكات، في حسن أداء هذه الأمانة، والإثابة عليها، عندما ذكر سبحانه عشر صفات، من حرص عليها محافظة وأداء، كَسَبَ ما أَعَدَّ الله لهم من مغفرة، وأجر عظيم، فقال تعالى: ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾^(٢) الآية.

ذلك أن الأمانات المتعددة، التي حمل الإنسان نفسه ثقلها، يجب عليه الحرص بمراعاتها، ووضعها أمام عينيه، ما ثلة في كل لحظة، ليراعيها ويحوطها بالاهتمام والعناية، كما يهتم بما يتعلق به، أو أكثر من مراعاة أمانة الأمور الثمينة عنده: من نقد ومتاع ونفائس، وعروض وأمر أثرية عند أصحابها، كما يقولون: «بأن المال وزين الروح».

فإذا كانت هذه الأمور النفيسة، والغالية في ثمنها، لا يضيّعها في مفهوم البشر، إلاّ السفهاء، وشرار الخلق، ومن يحكم بجنونهم،

(١) سورة المؤمنون الآيات: ١-٣.

(٢) سورة الأحزاب من الآية: ٣٥.

حيث يحجر عليهم.

فكيف يهون على هذا الإنسان، أن يقصّر في الأمانات مع الآخرين، حقوقاً وودائع، ومع الله سبحانه، شرائع وعبادات فلا يؤدي حقّها، ولا يصون أمانتها وثقلها.

إن حقّ الله أولى بالأداء، وأهم في الرعاية والمحافظة..

ولا مبرر لذلك إلا غلبة الهوى، وتسليم النفس الأمانة بالسوء القيادة.. فقادت صاحبها، إلى الاستهانة بالحرّمات، التي عظّمها الله، وفي مقدمتها: الأمانة أيّا كان نوعها... والشاعر يقول:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

ومن هانت عنده، شرائع الله، واستخفّ بالحرّمات، فمن باب أولى أن تهون عنده الأمانة، بمفهومها العام، لأنها مرتبطة بتقوى الله سبحانه، ومراقبته في السرّ والعلن، ولا يتساهل في الأمانة إلا من قدّم شهوات نفسه، على أمر الله وأمر رسوله، فالنفس في حاجة للمجاهدة، وكبح جماحها، حتى لا تستسلم لما تميل إليه من ربح عاجل، نتج عن أكل حقوق الآخرين: ضعفاء لا يستطيعون المدافعة، وأيتام لا يدركون حقوقهم، ونساء يستغلّ ضعفهن، وعدم قدرتهن. فتضيع الأمانة مع أثره النفوس، وغلبة الهوى، وحبّ الاستعلاء والشهوات، وغير ذلك من أمور تدخل تحت سقف الشهوات،

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

المقدمة على أمر الله، وأمر رسوله، ﷺ .

والنفس بطبيعتها، تميل للأمور العاجلة، ولا يكبح جماحها، إلا الانقياد لأمر الله، وحمايتها بالوازع الإيماني، الذي هو حصن قوي، يردعها عن الاستسلام للشهوات، التي في مقدمتها ضياع الأمانة، والانقياد للهوى، وعاجل المتاع من الدنيا، يقول سبحانه: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (١).

وهذه الأصناف بعد العبادات، جزء مما يدخل تحت سقف ضياع الأمانة، والتهاون فيها: طمعاً أو تعدياً، وفي عرض شرع الله للأمانة، يقول تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٢).

وهذا أمر جازم، بأهمية المحافظة على الأمانة لثقلها، والدور الواجب رعايته بشأنها، سواء لنفسه بالظلم والانصراف عن طريق الحق، الذي أمره الله به، أو مع الآخرين كبرت الأمانة، أو صغرت بحسب الإنسان، ومن يتعامل معه، والشاعر يقول:

والظلم من شيم النفوس وإن تجد ذا عفة فليعللة لا يظلم

(١) سورة آل عمران الآية: ١٤.

(٢) سورة الأحزاب الآية: ٧٢.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

فالمسلم العارف ما له وما عليه، هو الذي يرفع هذه الأمانة، في علاقته بغيره، سواء في داخل بيته: مع أهله وولده، أو من يرتبط بهم في العمل، لأن الله حرّم الظلم على نفسه، وجعله بين عباده محرماً حتى لا يتظالموا^(١).

وعن هذا الدور، في المكانة للأمانة ورعايتها، قال رسول الله ﷺ، في حديث عن أمين السرّ، حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: حدثنا رسول الله ﷺ، حديثين، قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا «أن الأمانة نزلت، في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة، ثم حدثنا عن رفع الأمانة، قال: ينام الرجل النومة، فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها المجل كحجر دحرجته على رجلك فنقط، فتراه مُنتبراً، وليس فيه شيء، ثم أخذ حصاة فدحرجها على رجله، فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدّي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما

(١) كما جاء في حديث قدسي طويل أخرجه مسلم كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم (٤٦٧٤) عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربّه، وفيه: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا».

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

أجلده ما أظرفه ما أعقله، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»، ثم قال: «ولقد أتى عليّ زمان، وما أبالي أيكم بايعت، لئن كان مسلماً ليردّنه عليّ دينه، وإن كان نصرانياً أو يهودياً، ليردّنه عليّ ساعيه، وأما اليوم فما كنت أباع منكم إلا فلاناً وفلاناً»^(١).

ومن الأمانة: المحافظة على عصمة، دماء المستأمنين، والمعاهدين، وأهل الذمة: في أموالهم وتحريم الاعتداء عليهم، استجابة لأمر الله سبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾^(٢).

وعدم الوفاء لهم ما داموا على العهد، مستقيمين يتنافى مع مكانة الأمانة التي أمر الله بها ورسوله ﷺ، في مثل هذه الأحاديث:

١- عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً» أخرجه البخاري في كتاب الجزية والمواذعة،

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة، حديث رقم (٦٤٩٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة من بعض القلوب ... حديث رقم (١٤٣)، وينظر في هذا الحديث كاملاً: جامع الأصول لابن الأثير، تحقيق الأرناؤوط الطبعة الأولى عام ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م، ١١: ٣-٥.

(٢) سورة التوبة آية: ٧.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم^(١).

كما جاء أيضاً في باب الديات: باب من قتل ذمياً بغير جرم^(٢).

٢- وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ

يقول: «من قتل معاهداً في غير كنهه، حرّم الله عليه الجنة»... أخرجه

أبو داود في كتاب الجهاد، باب في الوفاء للمعاهد وحرمة ذمته^(٣).

٣- وفي رواية النسائي كتاب القسامة، باب تعظيم قتل المعاهد،

جاءت بنص: «من قتل رجلاً من أهل الذمة، لم يجد ريح الجنة، وإن

ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عاماً»^(٤).

٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «ألا من قتل نفساً

معاهدة، له ذمة الله، وذمة رسوله، فقد أخفر بذمة الله، فلا يرح رائحة

الجنة، وإنّ ريحها ليوجد مسيرة سبعين خريفاً».... أخرجه الترمذي في

كتاب الديات، باب من يقتل نفساً معاهدة، وقال حديث صحيح^(٥).

٥- وعن صفوان بن سليم، عن عدة من أبناء الصحابة، عن

(١) رقم: ٣١٦٦.

(٢) برقم: ٦٩١٤.

(٣) رواية أبي داود برقم: ٢٧٦٠.

(٤) سنن النسائي ب ٨: ٢٤-٢٥.

(٥) برقم: ١٤٠٣.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

آبائهم أن رسول الله ﷺ قال: «ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة».... أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والفئ، باب في تفسير أهل الذمة^(١).

٦- وأخرج أبو داود أيضاً، في كتاب الخراج عن العرباض بن سارية رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إن الله لم يحلّ لكم، أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب، إلا بإذن، ولا ضرب نسائهم، ولا أكل ثمارهم، إذا أعطوا الذي عليهم»^(٢).

وغير هذا من النصوص الشرعية، وأقوال العلماء، ما داموا لم يرفعوا راية ضد الإسلام وأهله، ولم ينقضوا عهداً مبرماً معهم، أو يعلنوا العداء للإسلام ونبّيه، قولاً أو فعلاً.

فإذا كان هذا لأهل الكتاب، فما بالك بأصحاب الفكر الضالّ، والآراء المنحرفة، وقتل الأبرياء، وتدمير الممتلكات، وترويع الآمنين، والتسلط على العلماء: إيذاء وتهديداً، وحفاظ الأمن، والقيادات في الدولة... وتكفيرهم.. إن ذلك من خيانة الأمانة، ومن إيذاء المؤمنين بغير ما اكتسبوا.. فهذا زيادة عن كونه بعيداً عن الأمانة،

(١) برقم: ٣٠٥٨.

(٢) المصدر السابق.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

ففيه خروج على وليّ الأمر، وإيذاء لجماعة المسلمين، يقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾^(١).

وقد عرّف العلماء الأمانة، تعريفاً دقيقاً: بأنها كلّ ما يخفى ولا يعلمه إلا الله، ومن المكلف كذلك وألزم، ويرى ابن عباس: بأنّ الأمانة هي الفرائض التي أمروا بها، ونهوا عنها، وقال أبو بكر بن العربي: المراد بالأمانة في هذا الحديث: الإيمان، وتحقيق ذلك فيما ذكر من رفعها: أن الأعمال السيئة، لا تزال تُضعِفُ الإيمان، حتى إذا تناهى الضعف، لم يبق أثر للإيمان، وهو التلّفظ باللسان، والاعتقاد الضعيف في ظاهر القلب، فشبهه بالأثر في ظاهر البدن، وكُنِيَ عن ضعف الإيمان بالنوم، وضرب له مثلاً، لزهوق الإيمان عن القلب، حالاً بزهوق الحجر عن الرّجل، حتى يقع في الأرض^(٢).

والأمانة أماكنها كثيرة جداً، ومنافعها واسعة وذات أثر، إذا أدّيت على وجهها، وعديدة حيث تأتي في كل شأن من شؤون الحياة، ويتعدّى نفعها إذا أحسن أدائها، ويستشري ضررها وينتشر بالعدوى،

(١) سورة الأحزاب آية: ٥٨.

(٢) جامع الأصول لابن الأثير تحقيق الأرنؤوط الطبعة الأولى عام ١٣٩٢ خ،

١٩٧٢ م ١: ٣٢٠ الحاشية.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

إذا استهين بها، وخفّ ميزانها لدى بعض الناس، فهي مرتبطة بالإنسان ومصالحه، وبدينه الذي هو عصمة أمره وعقيدته، وإنّ اهتمام الإنسان بها، وحرصه على الوفاء بها: رغبة فيما عند الله، واستجابة لأمره سبحانه، واتباعاً لتبليغ رسوله الكريم ﷺ لهو أمر بالغ الأهمية، لأنّ مادتها ودلالاتها، تكررت في كتاب الله الكريم، وفي سنة رسول الله، مرّات عديدة، مؤكّدة، وغير مؤكّدة، والبلاغيون يقولون: زيادة المبنى، زيادة في تمكين المعنى.

- فمن أمانة جوارح الإنسان: اللسان بعدم إفشاء الأسرار، التي أوّتمن صاحبه عليها، كما جاء في حديث زُوَيٍّ عن معاذ بن جبل ؓ، عندما قال له رسول الله ﷺ: «كَفَّ عَلَيْكَ هَذَا». فقال: يا رسول الله أنحن مؤاخذون بما نقول؟ فأجابه الصادق الأمين بقوله: «ثكلتك أمك يا معاذ، هل يكب الناس في النار على وجوههم، أو قال: على مناخرهم، إلّا حصائد ألسنتهم»^(١).

وأمانة الأعمال الدنيويّة، منها الشّخصي والتّجاري، ومنها الأعمال الرّسمية، التي فيها أسرار جهة العمل، سواء كانت الدولة: عسكرياً وأمنياً وعلمياً، أو الشركات والأفراد، وما يقع تحت السمع

(١) أخرجه الترمذي برقم: ٢٦١٦، وابن ماجه برقم ٣٩٧٣، وأحمد في مسند الأنصار برقم: ٢١٥١١.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

واليد، أو البصر وغير ذلك... ممّا يتعلّق بالأمن والمجتمع والأسر، وخصوصيّات الأفراد والبيوت.. وكل ماله رابطة بالدولة وأمنها، وسلامتها، أو الجهة التي أوّتمن الشخص عليها.

فالإنسان يجب أن يكون أميناً على أسرار عمله: أهلياً أو حكومياً، وأن يتعهد بعدم إفشاء ما تحت نظره، وما تناله يده، عن أيّ شيء يلتقطه الآخرون منه، فيعتبر الإفشاء به، ولو كان في نظره بسيطاً، فإنّ له أثراً بالغاً بولاية الأمر، وبالعاملين لمصالح البلاد والعباد.

وفي العمل الأهلي الخاص، فقد يضرّ به، في مجالات متعدّدة: حسداً ومنافسة ومبالغة في الإضرار، وما ذلك إلّا أنّ كلمة تتفوّه بها، أو معلومات يتحدّث عنها العامل، ولو رأى ذلك الأمر بسيطاً، لا يعبأ به في عفوئته..

هذا الأمر من التّهاون بالأمانة، وعدم كتمانها سرّاً، قد يعتبر ضرراً كبيراً، على صاحب العمل، وقد يُبنى عليها أمور بالغة الخطورة، ممّا دفع الجهات كثيرة الحساسة في عملها الدقيق، أن تجعل شعار موظفيها ثلاث كلمات تبرز أمام الجميع، لتأكيد خطورة ما قلّ من الأمانة، وهي: ما رأيت، وما سمعت، وما علمت. وهذا الرمز في غاية الكتمان، والمحافظة على الأمانة.

ويجب ألاّ يستهان بهذا، ولا يستصغرنّ الإنسان، في الأمانة،

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

أمراً مهماً تضاعف في ذهنه، فإن الطّيف عنده، لقطة عند الطّرف الآخر، ثمينة، ينبون عليها جسوراً عديدة، هذا من أهم الأمانات الأُمْنِيَّة، وهو من طاعة الله، وطاعة رسوله، وطاعة وليّ الأمر، ومعظم النار من مستصغر الشرر..

فقد تنفصم عُرى الحياة الزوجية، في أمرٍ أفضى به رجل لامرأته، أو امرأة لزوجها لأنه لم يُكْتَم، وقد تفلس شركة، أو يغلق متجر، بنفس السبب، وقد تتضرّر دول، بمعرفة العدوّ هذا السرّ...

فقد قالت بنت نبي الله شعيب عليه السلام، عن موسى عليه السلام كلمة، رَغَبَتْه في أن يستأجره، ويزوّجه ابنته، وهي ما لاحظته عليه من أمانة غُض النظر فقالت: ﴿يَتَأَبَّتْ أَسْتَجِرُّهُ إِنِّي خَيْرٌ مِّنْ أَسْتَجَرْتُ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾^(١).

وسمّى رسول الله ﷺ، أبا عبيدة بن الجراح: أمين هذه الأمة، بقوله الكريم برواية سالم عن أبيه، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل أمة أميناً، وأمين هذه الأمة، أبو عبيدة بن الجراح»^(٢).

وممن روى عن رسول الله ﷺ، في أمانة أبي عبيدة: أبو بكر

(١) سورة القصص الآية: ٢٦، ويراجع تفسير ابن كثير، وما جاء في هذه الآية.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٧٤٤ في مناقبه. ومسلم برقم: ٢٤١٩ في فضائل الصحابة.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

الصديق، وابن مسعود وحذيفة، وخالد بن الوليد، وأنس وعائشة، ولعل أمانته جاءت من ورعه، وزهده وقوة إيمانه، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال لأصحابه: أتمنى أن هذه الدار، مملوءة مثل أبي عبيدة بن الجراح.

فقد دخل عليه في بيته بالشّام، رضي الله عنهما: فلم يجد فيه إلّا سيفه وترسه ورحله، وهو مضطجع على طنفسة رحله، متوسداً الحقيبة، فقال له: ألا اتّخذت ما اتّخذ أصحابك؟ فقال: يا أمير المؤمنين هذا يبلّغي المقيّل^(١).

وأمانة المجالس وما يدور فيها، من أحاديث ولو كانت عابرة: في إفشائها ضياع للمصالح، وفتح لباب الحزازات التي قد تسبب الكراهية، وفتح باب القيل والقال، والغيبة، والتّهمة التي هي الحالقة، والحسد، والبغضاء، الذي يأكل الحسنات، مع الآثار السيئة التي لا تخفى على العقلاء، ولذا كانت تقال هذه الكلمة: المجالس بالأمانات.

أمّا أمانة العبادات، فهي أمور بين الخالق والمخلوق، ودقيقة وذات حساسية، ولا يقوّيها ويمكّنها، إلّا الإيمان الرّاسخ، وتقوى الله: التي هي مراقبته سبحانه في السرّ والعلن، فإذا قوي الإيمان، اهتّم

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني في نشر دار أم القرى بالقاهرة ج ١ ص

صاحبه بالأمانة: طاعة الله، ووفاء بحقّها: محافظة وتطبيقاً.

ومع الخلل الذي يطرأ على الإيمان، ومكانته من قلب صاحبه، فإنّها تهون عليه الأمانة، فيضيّعها: سواء في الصلاة، والمحافظة عليها، أو في الوضوء والخشوع في الصلاة، أو الزكاة وأداء حقّ الله لأهلها المستحقين، أو الصوم في شهر رمضان: وفاء وعقيدة وتمسّكاً، سرّاً وجهرّاً، فقد اختصه الله سبحانه له: «فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي»^(١).

كما أن المرتبة الثالثة، من مراتب العقيدة: الإحسان وقد عرّفه الرسول ﷺ كما جاء في حديث جبريل المشهور: «قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٢)، وهذا من المنازل الكبيرة، في أمانة العقيدة، وعبادة الله، على الوجه الذي يرضيه جلّ وعلا.

ولذا يستشهد طلبة العلم، على الإنسان، وهو يؤدّي عباداته التي فرضها الله عليه، حتى تكون بأمانة، مراقباً الله في أدائها، بقول الشاعر:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله عنك بغافل ولا أن ما يخفى عليه يغيب

(١) رواه البخاري ومسلم، في فضل الصوم.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ حديث رقم (٥٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام والإحسان، حديث رقم (٩).

للعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

فقد يقوم في الصّف للصلاة، رفيقان، حرصاً على الحضور والمبادرة، فأحدهما يرجع ظافراً مقبولة عبادته، لأنّه أداها بأمانة وصدق، بعد أن اهتم بالأمانة، في جميع أموره.. وقمن أن يستجاب له. أما الآخر فأنى يستجاب لدعائه، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه وذكر فيه : «الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك» ^(١).

وأما أمانة العهود والمواثيق، سواء كانت بين الأفراد، في التعامل والمعاملات والمدائنات، حتى تستقيم الحياة بين الناس، وتحفظ الحقوق: هائلة هادئة، مع الوفاء والمراعاة، لهذه العهود والمواثيق، فإنه لا بدّ من الاهتمام بأمانتها: بيعاً وشراءً، وتعاملاً ووفاءً، بشروط ما تمّ الاتفاق عليه، بدقّة وأمانة، وتوثّق كتابة وشهوداً، خوفاً من النسيان، وعدم كتمان أو إخفاء العيوب، الذي يدخل في الغشّ.

أو كانت في الحِرَف المتنوّعة، والاستصناع، ومراعاة لحدود البيع والشراء، وحسن التعامل، بلا غشّ ولا خيانة، ولا ضرر ولا ضرار، ولا احتكار للأقوات والأرزاق، ولا غير ذلك مما يدور في فلك المجتمع، بحسب ما تملّيه تلك المواثيق على الإنسان ومعاشه،

(١) أخرجه مسلم في الزكاة برقم: ١٠١٥، والترمذي في تفسير القرآن برقم: ٢٩٨٩.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

وعلى ما يتعامل به من حيوانات وزراعات، وغير هذا ممّا يدخل تحت الوفاء بما تمّ الاتفاق عليه، دون اعتلاء أو اعتداء... حفظاً للمواثيق المبرمة، وانتظاماً في التعامل، وفقاً لما يُحدّد من التزامات على كلّ طرف: بين الدول أو الجماعات، أو الأفراد، لأنّ: الرسول ﷺ قال: «المسلمون على شروطهم، ويسعى بذمتهم أدناهم»^(١).

هذا فضلاً عن أمانة المال، والفائس المتنوّعة المحبّبة للنفوس، التي جعلها الله زينة للإنسان، لأنّ النفوس تميل وتشتهي ذلك، ومع الشحّ والطمع، تهون الأمانة، لدى بعض النفوس الضعيفة، باتباع الشهوات، وحبّ الأثرة، ممّا يطغى على الأحاسيس، ويضعف الوازع الإيمانيّ، لتحرك النفس الأمّارة بالسوء، وتنقاد للرغبات، التي يتعاون فيها: الشيطان والهوى والنفس، فتتم السيطرة على إرادة الإنسان، ومن ثمّ تضيع الأمانة، بعد التساهل في أدائها تدريجاً وتسويقاً، ليقع في إثم الاستهانة بالأمانة، لأنّ من يهن يسهل الهوان عليه.

فقد كان رسول الله ﷺ، جالساً مع أصحابه يحدثهم، كما روى البخاريّ رحمه الله بسنده إلى أبي هريرة ؓ قال: بينما رسول الله في

(١) جزء من حديثين الأول: المسلمون على شروطهم. أخرجه الترمذي في الصلح برقم: ١٥٢، وأبو داود برقم: ٣٥٩٤، والثاني: ويسعى بذمتهم أدناهم. أخرجه النسائي في القسامة برقم: ٤٧٣٤، وأبو داود في الديات برقم: ٤٥٣٠.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

مجلس يحدث القوم، جاءه أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ، يحدث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع. حتى إذا قضى حديثه، قال: «أين السائل عن الساعة؟ قال الأعرابي: ها أنا يا رسول الله. قال: إذا ضيعت الأمانة، فانتظروا الساعة. قال السائل: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: إذا أوسد الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة»^(١).

وما ذلك إلا أن الساعة، التي لا تقوم إلا على شرار الخلق، من علامات اقتراب وقوعها: أن يضيع المجتمع بأسره الأمانة، ولا يزال في هذه الأمة، مجال للخير واسعاً، ما دامت الأمانة تجد رعاية واهتماماً، ومحافظة ودعوة إلى التعاون في سبيل الوفاء بالأمانات، والإنكار على من يتهاون بها.

وما ذلك إلا أن الأمانة من الإيمان، الذي مرّ بنا تعريفه بأنه: تصديق بالقلب، وعمل بالجوارح، وقول باللسان، ولا بدّ من تلازم هذه الأمور الثلاثة، حيث يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، فإذا أضيعت الأمانة، فسدت الأمم، وتعدّى القوي على الضعيف، وكثر الاستهانة بحقوق الآخرين عامّة وخاصّة، وبذلك تنعدم الثقة بين

(١) ينظر جامع الأصول لابن الأثير تحقيق الأرناؤوط عام ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢ الطبعة

الأولى ١: ٣٢١.

الناس، ويقلّ عمل الخير والإحسان.

ومتى قوي الإيمان في القلب، بقوة الوازع السلطاني، الذي يحرك الله به العلماء والدعاة، لإنكار المنكرات، وتقوية القلوب بالإيمان، فإنّ صاحبه يحرص على جذب الجوارح للأعمال الصالحة، المحببة عند الله، وعند الناس، فيغيّر الله بالنية الصادقة، المجتمع من حال إلى حال، كما جاء في الحديث الصحيح: «ألا وإنّ في الجسد، مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّهُ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»^(١).

فالنفوس الخيرة، مع صلاح المضغة، تندفع إلى ما يفيد ويسعد به المجتمع، ليعفّ بعضهم عمّا بأيدي الآخرين: رجالاً ونساءً، ويحمدون الله على ما هياّ لهم، بعد مجاهدتهم النفوس، وكبح جماحها عن الطمع، وتنمية جانب الخير، وبذا تكبر مكانة الأمانة، ليحفّ الأمن جوانب المجتمع، الذي يزدهر، وينمو فيه المال، وتنتشر الألفة بين أبنائه في تعاملهم، لأنّ الاقتصاديين يقولون: رأس

(١) أخرجه البخار، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه حديث رقم (٥٢)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم (١٥٩٩)، وأورده ابن ماجه في سننه عن النعمان بن بشير تحقيق محمد مصطفى الأعظمي الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ٢: ٣٧٥ برقم ٤٠٣٢.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

المال جبان لا ينمو إلا مع توفر الأمن، ثم الأمانة، التي بصدقها في التعامل، يحوطهم الله بعنايته ورحمته... ينزل في أعمالهم وأموالهم البركة والنماء، ويصبح المال آمناً يستفيد منه طبقات الأمة لأن الله حذر من الاحتكار بقوله الكريم: ﴿كَفَى لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾^(١).

ولأن كل فرد متى حاسب نفسه، ووازن فيها المكاسب بين عامل الخير، والانحراف إلى الشر، فإنه يرفع حق الأمانة: بين العبد وربّه: مراقبة وتقوى، وذلك بأداء ما افترض الله عليه، والاتّجاه لما يحبه الله، واجتناب ما عنه نهى، وبذا مع هذا المؤشر، نرى حق الأمانة، فيما بينه وبين من يتعامل معهم: من أهل و ولد، وجار وصاحب، أو من تربطه مسؤولية العمل، أو الصداقة أو مع الآخرين، أيّاً كانوا، ستقوى بلا شك رابطة الأمانة معهم: تأثراً وتأثيراً، ويعظم شأنها: أداء وحفظاً واهتماماً، لأن عامل الخير مع الناس، من عوامل الوفاء بالأمانة.

بل سوف تمتد مسؤولية الأمانة، مع الحيوانات والطيور، بحسن الولاية، والإحسان إليهنّ لأن الله محسن يحب المحسنين، ولا يرضى الإساءة في التعامل، مع كل نفس رطبة: لا إهمالاً ولا إطفاماً، ولا سوء ولاية.

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

وفي قصة المرأة التي دخلت النار في هرة، حبستها ومنعتها من الطعام والشراب، حتى ماتت، لا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض^(١). شاهد على ذلك.

فهذا الجزاء الذي أدخل هذه المرأة النار، جاء من ضياع الأمانة، وسوء الولاية كما هو نص الحديث.

ولئن اختلف المفسرون، وشرّاح الحديث، في مفهوم الأمانة بالتعريف الشّامل، أو حصرها في جانب حدّده بعضهم دون جانب، فإنّ جميع الدلالات تلك، التي جاءت عند ابن كثير رحمه الله وغيره، تلتقي في المفهوم العام للأمانة، مع الحقيقة الشرعية، في مفهوم الأمانة، وما يجب في أدائها، والمحافظة عليها، من حيث التعريف والتّعظيم بما عظمه الله شرعاً.

وجاء تعظيم الأمانة، لأنّ حملها ثقیل، والوفاء به أمر مشروع، ويؤصل ذلك ما جاء في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، من تخويف وعقاب، لمن يتهاون في أداء حقها، لما وراء ذلك من نكال أخروي أليم: ﴿وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(٢).

(١) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم جاء بروايات متعددة، جامع الأصول لابن

الأثير تحقيق الأرناؤوط ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م ٤: ٥٢٣ - ٥٢٦، ٨: ٦١٢.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

وقد قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: عبارة مجملة، تبين أنه لا منافاة بين تخصيص كل تعريف، من التعاريف التي جاءت عنده، أو عند غيره، بدلالة معينة، حول خصوصية الأمانة، كمن قال: إنها في غسل الجنابة، أو في الوضوء، أو في محافظة المرأة على موطن العفة، أو في الأمانات المالية أو المادية، أو في عَرْض من الأعراض المختلفة، أو في فلتات اللسان بالأسرار ذات الخصوصية، التي ينبغي عليها ضرر بالفرد أو الجماعة، أو يُخدق بالآفة بأسرها.

سواء مما ذكرنا، أو لم نذكره، لشمول الأمانة على كل ما يدور حول الإنسان: وهذه العبارة في قوله: فإن كل الأقوال التي أوردتها السلف، من هذه الأمة لا منافاة بينها، ولا تخصيص كل تعريف من التعاريف، التي جاءت بدلالة معينة، حول خصوصية الأمانة. كمن قال: إنها في غسل الجنابة، أو في الوضوء، أو في المال والجواهر، كما مرّ أو في غير ذلك.

فإن كل الأقوال، لا تضارب بينها، بل هي متفقة، وراجعة إلى أنّها التكليف، وقبول الأوامر، والحذر من النواهي، في الإخلال بشرط الأمانة، الذي بيّنه الله للجبال، والسموات والأرض، وهو: إن قام بذلك أئيب، وإن تركه عوقب، فأخافهم ذلك، وقبلها الإنسان،

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويمر

على ضعفه وجهله، وظلمه لنفسه، إلا من وفقه الله^(١).

ولعلنا نأتي بمثل محسوس في هذا، ويقع في حياة الناس كثيراً، من تساهل البسطاء من الناس، والجاهلين بمسؤولية الأمانة حيث يقعون في المصيدة، ولا ينفعهم الندم، لأنهم لم يمتحنوا إيمان ودين من تساهلوا معه، ليعرفوا محك الإيمان من قلوبهم، إذ طالما كفل إنسان شخصاً في دين أو أي نوع من التعاملات الدنيوية: كفالة غرم، أو كفالة حضور، مما يقود الكافل عند هروب، أو تمرّد من كفل، ليقاضيه صاحب الحق، الذي ضمنه عند الجهات الشرعية، فتلزمه المحكمة، بأداء ما كفل، أو بجزاء أكبر عندما يعجز عن الوفاء، وعليه أن يبحث عن المكفول، وهذا من ضياع الأمانة، التي خانها هذا الصاحب، وجازى المعروف بالإساءة، ولم يزرع المترتب عليه من حق، حمّله غيره، لذهاب الورع الديني، والتّقوى من قلبه.

وهذا ما يسميه بعضهم من: فساد الزّمان، ولكنّ الزّمان لا يفسد، وإنما الذي يفسد من فيه، عندما يستهينون بشرع الله، في كل أمر، ومنها الأمانة، التي هي أول ما يفقد من الدين، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ، يقول الشاعر:

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

(١) تفسير ابن كثير، كتاب الشعب: ٣ / ٥٢٢.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويمير

بل كانت الأمانة، في كثير من الأوامر الشرعية، التي هي حق الله، ولا مطالب لها من البشر، وإنما هو ثواب أو عقاب من الله، في يوم المعاد، حين لا ينفع الندم، كما مرّ في حكاية الآدمي، الذي يطالب بأداء أمانة ضيّعها في الدنيا، فيقول: كيف أؤديها، وقد انتهت الدنيا وما فيها، فتصوّر له كهيأتها التي يعرفها، ليحملها ويؤديها، وهو في نار جهنم، فإذا صعد بها تدرجت عند بلوغ النهاية، وهوت في قعر جهنم، وهكذا يستمرّ معها صعوداً ونزولاً، إلى ما شاء الله، وما ذلك إلاّ تصوير محسوس، من رسول الله ﷺ، وبيان لثقل الأمانة، التي عظم الله شأنها، ليحذرها كل مؤمن^(١).

وقد مدح الله سبحانه، المؤمنين وأعلى منازلهم، بحرصهم على أداء الأمانة، وتورّعهم عن أخذ ما فيه شبهات، رعاية لحقّها: أداء ومحافظة وتوعية، ومن أهمها أموال اليتامى وغيرهم المستحفظ عليها، ومثلاً يحتذى، بوازع إيماني، وبتقوى الله فيما بينه، وبين الآخرين، فقال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾^(٢)، بعدما أثنى الله عليهم سبحانه، بأداء أمانة التكليف، بأمور عديدة جاءت

(١) يراجع في هذا، تفسير ابن كثير، وتفسير السيوطي، لآية الأمانة في آخر سورة الأحزاب .

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٨.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

في أول السّورة، وغيرها من كتاب الله، وعلى لسان رسوله الكريم ﷺ .
فقد حدّث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ
أنه قال: «أربع إذا كنّ فيك، فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حِفْظُ أمانة،
وصدق حديث، وحُسن خَلِيقَة، وعِفّة مطعم»^(١).

وحدّث أبو موسى الأشعريّ ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال: «إن
الخازن المسلم الأمين، الذي يعطي ما أمر به، فيعطيه كاملاً موفراً
طيّبة به نفسه، فيدفعه إلى الذي أمر له به، أحد المتصدّقين»^(٢). وهذا
من الاهتمام بالأمانة، والسعي فيها.

أمّا رواية النسائي فهي قوله: «المؤمن للمؤمن، كالبنيان يشدّ
بعضه بعضاً». وقال: «الخازن الأمين، الذي يُعْطِي ما أُمِر به، طيّباً به
نفسه، أحد المتصدّقين»^(٣).

وفي مجال التّدرج، في مهاوي خيانة الأمانة، والاستمراء تعمّداً
في هذا العمل الرّذيل، يأتي حديث أورده، ابن ماجه في سننه،
بتحقيق الدكتور: محمد مصطفى الأعظمي، في الطبعة الثانية، عام

(١) أخرجه أحمد ٢: ١٧٧، برقم ٦٦٥٢، والبيهقي في شعب الإيمان ٤: ٣٢١ برقم ٥٢٥٨ وغيرهما .

(٢) هذه رواية البخاري ومسلم وأبي داود.

(٣) يراجع في الروايتين جامع الأصول لابن الأثير: ١: ٣٢٤.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، وبسنده إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَهْلِكَ عَبْدًا، نَزَعَ مِنْهُ الْحَيَاءَ، فَإِذَا نَزَعَ مِنْهُ الْحَيَاءَ، لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا مَقِيَّتًا مَمَقَّتًا، فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا مَقِيَّتًا مَمَقَّتًا، نَزَعَتْ مِنْهُ الْأَمَانَةَ، فَإِذَا نَزَعَتْ مِنْهُ الْأَمَانَةَ، لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا خَائِنًا مَخُونًا، فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا خَائِنًا مَخُونًا، نَزَعَتْ مِنْهُ الرَّحْمَةَ، فَإِذَا نَزَعَتْ مِنْهُ الرَّحْمَةَ، لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا رَجِيمًا مَلْعَنًا، فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا رَجِيمًا مَلْعَنًا، نَزَعَتْ مِنْهُ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ»^(١). نعوذ بالله من ذلك.

ومن حِرْص الصحابة، ثم التابعين على سلامة دينهم وعملهم، فإنهم يتابعون، الأوامر الشرعية ليعملوا ويطبقوا، أخذاً من المقولة: رحم الله من سأل، وانتهى إلى ما سمع، فقد أخرج أبو داود في باب البيوع، أن يوسف بن ماهك، وهو تابعي مكِّي رحمه الله، قال: كنت أكتب لفلان، نفقة أيتام كان وليهم، فغالطوه بألف درهم، فأذاها إليهم، فأدركت لهم من أموالهم مثلها، قال: قلت له: اقْبِضْ الْأَلْفَ الَّذِي ذَهَبُوا بِهِ مِنْكَ.

قال: حدثني أبي أنه سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى

(١) سنن ابن ماجه الطبعة الثانية والمحقق حائر على جائزة الملك فيصل للدراسات

الإسلامية ٢: ٣٩٣ برقم: ٤١٠٣.

لمعالي الدكتور محمد بن سعد الشويمر

من اتّمتك ولا تخن من خانك» أخرجه أبو داود^(١).
 ولا تزال أمة محمد ﷺ بخير، ما حرصت على الأمانة، وأكثروا
 السؤال عنها، حتى تبرأ الذمم ولا ينحدروا على الهاوية، وفق الحديث
 السابق حتى يبقى حَبْلُهُمْ موصولاً فيها - بحمد الله - إلى قيام الساعة.
 ولما كان كتاب الله عز وجل، وسنة رسول الله ﷺ، فيهما: النَّهي
 عن التعدي، سواء باليد في حقوق الآخرين، أو باللسان، في الدعاء،
 والتجاوز.. فإنّ من الأمانة: الوسطية في الدعاء: فلا جفاء ولا غلوّ.
 والله الهادي إلى سواء السبيل... وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ
 العالمين؛؛

(١) ٢: ٢٦٠ في البيوع، ينظر جامع الأصول لابن الأثير تحقيق الأرناؤوط ١٣٨٩هـ

